في بادية الشام

(٤)

(طعام البادية) لا يزال البدو مقتصرين — كما ذكر ابن خلدون — على الضروري من الاقوات والملابس وسائر الاحوال والعوائد ومقصرين عما فوق ذلك من حاجي او كالي ويتناولون امراضهم بعلاج او بغير علاج البتة الا ما مسته النار وذلك لاضطرار البدوي الى التنقل في كل حين فاختار بحكم معيشته الايسر تناولاً فتأتى الحضارة امر لم يعرفه البدوي فانه اذا اقام اياماً في منزل وأكل العصيدة عد ذلك من النعيم . وهذه العصيدة عبارة عن اللبن الحليب يغلى فيذرون عليه الدقيق قارة او يضعون فيه البرة الجريش « البرغل » وقليلاً من الدهن ويقال لها حينئذ الجريشة . واذا ضيف رجلاً عزيزاً ذبح له نعجة او خروفاً ودعا اكراماً للضيف كثيراً من البدو لوليمة فكنا نفرح اذا ما حل بنا ضيف لنصيب حظنا من لحم لا نذوقه في البادية الا قليلاً . اما في الاعياد والافراح فيذبحون الابل الكوماء لان لحم البعير عند البدوي سيد اللحم كله . وكان بريكان الصليبي اذا اراد ان ينعمني بطعام العشاء طبخ الارز ويسميه الثمن وبعد ان ينضج يأخذ يضعه في باطية ويحفر في اوسطه حفرة يضع بها الزبدة التي تذرب بحرارة الطعام فتبلك الارز بالزبدة وتزيده ازدراداً

وكان شاهر الخريشة الصخري يذيب السمن ويأتينا به بمقلاته فنغمس فيه خبز الصاج الفطير وقد يمزج لنا السمن بحليب الاقط[1] وبقينا هكذا اياماً لا نتغذى الا بالخبز والسمن وقد ورث البدو هذه الاكلة النفيسة عن اسلافهم في الجاهلية الذين كانوا يسمونها الترويل فقد نقل الثعالبي عن ابن الاعرابي قوله : « فاذا دلكت الخبز بالسمن فهو الترويل » ولا يزالون على آثار آبائهم الاولين في صنع خبز الملة وذلك بان يلتوا الدقيق بالماء ويجنوه عجناً خفيفاً ثم يخطبوا ويوقدوا فيثرشوا الجمر ويطرحوا عليه الرغيف المخين ثم يغطوه بما بقي من النار فاذا نضج الرغيف تقاسموه . واكثر ما يصنع خبز الملة في السفر واما في الاقامة فيأكلون خبز الصاج وفي كلتا الحالتين لا يذوقون الخبز الخمير لانه من الرفاهية التي حرم منها البدوي

---

(١) الاقط ويقال له اليوم الجميد وقد شاهدتهم يصنعونه من اللبن الحامض ويتخذون من جبنه اقراصاً صغيرة يجففونها في الشمس ليدخروها مرفونة لهم في الاسفار

فاذا ما ظفر بها شكر الله على تلك النعمة كثيراً . وقد كان سلف هؤلاء البدو الصالح بعد الخبز الخمير من فاخر القرى في رواية لنا عبدالله بن مصعب قال :

وقف معاوية على امرأة من بني كنانة فقال لها « هل من قِرى » قالت نعم قال « وما قراكِ » ؟ قالت : « عندي خبز خمير ولبن قطير وماء نمير » . وفي حديث ابي ذر رضي الله عنهُ : « الحمد لله الذي اطعمنا الخمير وسقانا النمير »

وسيد طعام القرى البدوية كدومة الجندل (الجوف) وسكاكة الدفينةُ وهو الثريد الذي كان العرب قديماً اذا ارادوا ان يفضلوا رجلاً قالوا : فضل فلان على سائر قومهِ كفضل الثريد على سائر الطعام . وتعد الدفينة من بذخ العمران البدوي وقد اكلتها في دومة الجندل مراراً فالفيتها لذيذة شهية ولا تصنع الاَّ في الولائم اوقرى لضيف كريم . وطريقتهم في عملها ان يعمدوا في طشت كبير (منسف) من رقائق الخبز نضداً يكفي المدعوين ثم يغطون هذا النضد بطبقة من الارز ثم يأتون بالذبيحة ناضجةً فيسقون مرقها الثريد ويكومون اللحم فوقهُ تكويماً

والصابون الذي نعدهُ من مرافق العمران لا يوجد في البادية الاَّ نادراً فما كان صابوننا بعد الطعام الاَّ ان نمسح اكفنا من الدهن الكثيف بطرف الشقة من بيت الشعر . وما استغنى البدوي عن الصابون الاَّ اعتماداً في الماء القليل في البادية كاستغناء الشارع بالتيمم عن الوضوء . ومع انهم يدَّخرون الماء للطبخ او اطفاء للعطش الدائم كما يعبرون ولم ارَ بدوياً يمسح يديهِ بلحيتهِ بعد الطعام وان كنا نسمع في بلاد الشام ان « صابون العرب لحاها »

لا ينزل قدرهم عن اثافي الموقد ويصب الطعام في الجفان الاَّ ويحدق بها البدو احداق الخوارج بابي نعامة يلقمونهُ وهو يكاد لشدة حرارتهِ يفور . فكنت ورفيقي نطلي جدار الجفنة بالطعام تبريداً لهُ فيستطاع نوعاً ما اكلهُ . وكثيراً ما كنا نقزع من حاميها بديننا بسرعة ونحرك في الهواء اصابعنا ملذوعةً مستغيثين بالله من النار والطعام الحار ولذلك كنا ابطأ القوم اكلاً ولم نكن بأعجلهم . . . وقلما قمت عن الجفنة الاَّ جائعاً لان يدي ما كانت لتصل باللقمة الى فمي مرةً الاَّ وتكون يد البدوي قد وصلت كما يشهد الله عشراً . فالضرورة وحدها هي التي كانت تجعلني عاملاً بالحديث الذي اخرجهُ الترمذي عن المقدام بن معديكرب : « ما ملأ آدمي وعاءً شراً من بطن » وهي التي كانت تدعوني لأتمثل بقول حاتم :

فاني لاستحي اكبي ان يرى مكان يدي من جانب الزاد اقرع
اكف يدي من ان تمس اكفهم اذا نحن اهويا وحاجتنا معا

ولهذا كان اهل الذوق من الاعراب يلاحظون ما يصيبنا من الغبن الفاحش بمشاركتنا اياهم في الاكل اذ « سياق المذكيات غلاب » فيشمون الصحفة لئلا نأكل على حدة ونشبع على رسلنا . ولله ما اصدق ذلك البدوي الذي قيل لهُ : ما اسم الثرق عندكم قال السخين . قيل فاذا برد قال لا ندعهُ حتى يبرد

وقبل ان تدرك الجوف اصطاد بعض صحابتنا حيواناً صغيراً ابيض البطن رمادي الظهر يداهُ اقصر من رجليهِ خلقةً فأرة برية فسألتهم عن اسمهِ فقالوا جربوع فعلمت انهُ المراد من قول سادتنا النحاة في باب البدل : « خلق الله اليربوع يديهِ اقصر من رجليهِ » اذ ما اليربوع في الواقع الأ الكنغرو بصورة مصغرة . ثم امرع الصائد وشواهُ ونقاهُ وصحبهُ وازدردوهُ سريعاً كما يزدرد الحضري الفالوذج . وعثر بدوي آخر على اثر قنفذ فاقتفرهُ وعاد بعد هنيهة بصيدهِ وكانهُ آب بجوف الفرا فاضرم النار ورماهُ بها حيّاً ولما تمكن من القبض على عنقهِ المنقبض حذر النار ذبحهُ واكلهُ ورفاقهُ بعد تمام نضجهِ بجشع غريب ولقد باركت لهم ورفيقي بحصتينا من القنفذ واليربوع

ورأى عرب السرحان في رائعة النهار وقبل ان تصل الهزيع ضبعاً طاردوها بخيلهم والفرس اسرع من الضبع فادركوها واسموها رمياً بالرصاص وذبحوها وارتاحوا تلك الليلة بها ويزعمون ان لحمها علاج من الحمى . ولليدو غرام بأكل الجراد ولعلهُ حل اكلهُ توسلاً لاباحتهِ على ان لهُ في السنة المجدبة نفعاً في البادية جزيلاً

ولهذا اجاب النبي (ص) من سألهُ عن الجراد فقال : اكثر جنود الله لا آكلهُ ولا احلهُ » . وفي رواية رزين عن جابر دعا النبي (ص) على الجراد فقال : اللهم اهلك الجراد اقتل كبارهُ واهلك صغارهُ واقطع دابرهُ وخذ بافواهها عن معايشنا وارزاقنا انك سميع الدعاء » . وعلى كلٍّ فاني اعلل اكلهُ بما قال بهِ المجتهد البارع السيد احمد زكي اكل الضفادع في رحلتهِ « الدنيا في باريس » فاقول ان اكلهُ ليس بشرٍّ من ابي جلبو والمنتقة وام الخلول والعلجوم ولو اعتادهُ المرسيليون لاتخذوا منهُ طعاماً نظير « البو بانيز »

ذكر الامام الجاحظ في المحاسن والاضداد قال حدثنا بعض بني هاشم قال قلت لاعرابي : من اين اقبلت ؟ قال من هذه البادية قال واين تكن منها . قال مساقط الحمى

حمّى ضريبة ما إن تعمر الله ان يبدلها بدلاً ولا ابتغى عنها حولاً حفتها الفلوات فلا يتوضح ماؤها ولا تحمى تربتها ليس فيها اذى ولا قذى ولا وعك ولا موم (البرسام) ونحن بأرفه عيش واوسع معيشة واسبغ نعمة . قلت مرّ طعامكم قال يخ يخ الطبيد (الحنظل) والضباب واليرابيع مع القنافذ والحيات وربّما اكلنا والله القدّ واشتوينا الجلد فلا نعلم احداً اخصب منا عيشاً فالحمد لله على ما رزق من السعة وبسط من حسن الدعة !

(ميقوع) بعد ان رويت ركائبنا من قليب الجرادي امتطيناها وسارت بنا فوق الرمال وبين الشرق والشمال . وبعد سير نحو ساعتين رأينا عن بعد خيالاً ظننهُ الركب عدوًّا من شحر غازيًا وكان قد فارقنا من الركب بدويان يقصدان ماء ميقوع وقد تركناهُ على اثرنا وكان عرب من بني سليمان نازلين عليهِ وبعد ساعة عاد البدويان يخبّان على راحلتيهما خوفاً من ذلك الركب الشمري وحينئذٍ ايقنّا بالشر فهربنا مياسرين (الى اليسار) وصرنا نتوارى عن العدو بالهضاب وما منا الا من عبّأ بندقيتهُ كما عبّأت مسدسي وقد شددتُ للموت الحيازيم وانا ادعو الله الاّ يظفر بي اظفار الاعداء وان يكفني بخاصّي اللأواء واظن ان الله استجاب لي الدعاء فاعمى عين الغازين عنا ونجانا برحمتهِ جميعاً

وميقوع لم يرد بهذا اللفظ في معجم البلدان وانما ورد موقوع قال هو ماء بناحية البصرة قتل بهِ ابو سعيد المثنى الخارجي العبدي فان كان مصحفاً عن موقوع وهو غير بعيد عرفنا ان في جزيرة العرب ماء غير واحد باسم موقوع . وهذا الماء على بعد مرحلتين من دومة الجندل ونحو ساعتين من ماء الجراوي شرقاً

(العبد) وما زلنا نطوي البيد ونواصل السير بالسرى حتى لاح لنا من بعيد جبل شاهق في البيداء قاتم اللون يقال لهُ العبد بينهُ وبين الجوف نحو فرسخ وحينما بلغناهُ الفينا بجانبهِ عدة قُلُبٍ في رهدة يحدق بها روابي من الصفّاح الصلصالي ووجدنا الحنظل نابتاً في هذه الوهدة . وبعد ان شربنا ركبنا وخببّت بنا المطايا سيما بعد ان شاهدت خضرة النخيل وشعرت بانها على مقربة من الماء الغير والعلف الوفير والظل الظليل واما انا فقد شعرت بما يشعر بهِ ركب السفينة السادرة في تيه البحار اذا ظهرت لهم الجزيرة واطمأنّ فؤادي بابتعادي عن اشراك الاتراك . ولما دنونا من دومة الجندل وجدتها في غور من الارض يحدق بها الهضاب والآكام فعلمت سبب تسمية البدو لها اليوم بالجوف وشاهدت في مدخلها الغربي انقاض سور كان بالصفاح مشيداً وما زلنا نلج في نخيل الجوف ونشاهد بيوت الشرارات الشعرية حتى بلغنا البيوت الحجرية فرنّج المطايا لوصولنا بعد الغروب في قصر الامير وانخناها في مخيم طائفة من

عقيل نجد جاءت الى الجوف من الشام لاشتراء جمال للحكومة التركية . وقد رحبوا بنا اشد الترحيب وانزلونا قرب صلاة العشاء بالقرى فطعمنا ونمنا وفي الصباح اتانا عبد من عبيد الامير نواف الشعلان يدعونا للضيافة في قصر الامارة فلبينا الدعوة واخذنا اولاً الى دارهِ واكرمنا بالتمر الطيب والسمن الشذي وعلمنا منهُ ان الامير ذهب الى بلدة يقال لها سكاكة وان لهُ نائباً يقال لهُ عامر . وبعد ان استرحنا في منزلهِ قليلاً سار بنا الى قصر الامارة الذي كنا نسمع ونحن بالبادية من البدو بانهُ يحاكي بفخامتهِ قصور الشام او انهُ القصر الذي خلعت عليهِ جمالها الايام . ودخلنا من بوابتهِ فشاهدنا مدفعين من الطراز العتيق يقال لاحدهما المنصور غنمهُ الامير نواف من ابن الرشيد حين اكتساحهِ الجوف منهُ ثم صعدنا على درج مؤلف من نحو ثلاثين درجة ودخلنا مجلس الامير الخاص فقابلنا نائبهُ عامر وهو رجل طويل القامة اسمر اللون متقلد سيفاً مفضضاً وبعد ان حيانا ومن مجلسهِ ادنانا امر بطعام فحضر التمر والسمن والبيض المقلي الذي لم نذقهُ منذ فارقنا الشام فاكلنا وقضينا من الطعام الوطر وغسلنا ولله الحمد يدينا بالصابون النابلسي المطيب . ثم شربنا القهوة البدوية وسألنا عامر عن امرنا ومقصدنا فقلنا لهُ اننا من طلبة العلم الشريف واهل الشام . وانما قرونا من جندية لا تطيقها لانا من حملة الاقلام وانصار السلام . فرحب بنا ووعدنا بمقدم الامير نواف خيراً

(الشرارات) قبيلة كبيرة منتشرة في بادية الشام لم اجد احداً من المؤرخين المتقدمين ذكرها بهذا الاسم واما المحدثون منهم فقد اختلفوا اختلاف تشريق وتغريب فذهب الامير شكيب ارسلان في بحث « اكتناء عرب الشام » الى انهم من بني كلب لان اخوتهم بنو مكلب ولان التاريخ قد ذكر نزول كلب باطراف البلقاء من الشام . وذهب صاحب الرحلة الحجازية الى انهم فخذ من عبس التي كان لها في الجاهلية ذلك الجاه المنيع وكانت الى القرن الثامن الهجري قوية فاعتدت على جاراتها فنقم العرب عليها واوقعوا بها فشتت شملها الى اليمن وغيرهِ ومن ثم ضعف امرها وهي التي انجبت مثل عنترة وعروة بن الورد ويصدق عليهم في تشتتهم قول العرب : في كل واد اثر من ثعلبة . وعدهم المؤرخ البحاثة نعوم شقير في تاريخ سينا من قبائل هتيم وذكر انهم كثيراً ما يأبون دفع « الخاوة » لخماستهم وقال : « ولا يبعد ان يكون هتيم من سكان جزيرة العرب الاصليين الذين غلبوا على امرهم ولم يمكنهم المحافظة على كرامتهم بين العربان تعاشوا معهم على صغار ومن امثال اهل سينا في هتيم « الهتيمي كثير ناسه قليل باسه » ويريد بالاصليين العرب البائدة كعاد وطسم وثمود وجديس

اقول والله اعلم بحقيقتهم ان الشرارات ولا ريب من قبيلة كانت مجيدة يدل على ذلك منهم اليوم ما امتازوا به من الكرم على فقرهم فقد سمعت من كثير من القبائل التي تخالطهم بان الشراري اذا ضافهُ ضيف ولم يجد ما يقربه به غير ناقته الوحيدة قد يذبحها اكراماً لضيفه ولا يبالي . وعرف الشراري في البادية بأنهُ سريع النجدة منيع الحمى شجاع يستقتل دون ان ينهب ناقتهُ الغازون . كما انهُ قد عرف في بادية الشام بفراسة اسانهِ وسرعة جوابهِ وقوة شاعريتهِ البدوية وانهُ يضارع الدليمي بقوة دلالهِ وكونهِ أهدى بطرق جزيرة العرب ومسالكها من القطا

« للرحلة بقية » عز الدين آل علم الدين

صفحة من تاريخ التجارة المصرية

المشاريع والمقاصد بين مصر والبرتغال على احتكار تجارة الهند

(تابع ما قبلهُ)

وعلى ذلك اقول فيما يختص بموضوعنا ان الحروب الصليبية قد جعلت لكثير من الامم الاوربية ممالك صغيرة خاصة بهم في ارض الشام . وقد استفادت اوربا من تشييد هذه الممالك على ابواب آسيا لاستجلاب بضائع الشرق وتجارات الهند اليها مباشرة . استحوذ امر هؤلاء الصليبيين في بعض الاوقات حتى « ازعجوا دمشق عن مستقرها وقرروا عليها رسوماً فرضوها على بيت المال وعلى ارباب الاملاك والتجار وحتى دبّ دبيبهم الى مصر نفسها وارادوا انتزاعها في اواخر الدولة الفاطمية ثم اكتفوا بتقرير القطائع على خزينتها ورتبوا الشحانى (اي الاعوان) لجباية المكوس والاعشار من القاهرة والفسطاط[1] » وحتى اوشكوا على امتلاك ناصية البحر الاحمر بالقبض على طريق الحجاز باحتلال الكرك[2] ومحاولة وضع اقدامهم في الطور والعقبة بشبه جزيرة سينا[3]

---

(١) راجع مسالك الابصار لابن فضل الله العمري (٢) انظر ما تقدم ابتداءً من كلام ابن جبير

(٣) ذكر ابن فضل الله في « التعريف بالمصطلح الشريف » ان الافرنج كانوا قد تملكوا في الكرك مراكب وقطعوها في بحر القلزم بقصد الحجاز الشريف لامور سوئها لهم انفسهم فقصدت هم الغزاة الصلاحية واهلكتهم المعادلة فاخذوا وامر بهم السلطان صلاح الدين فحملوا الى مني ونحروا بها على جمر الغضا كما تقدم ابتداءً من كلام ابن جبير واستخرت بايدي المسلمين من يومئذٍ